البحث اللغوي العربي الحلقة المفقودة في تأريخ الغرب

أ. ربيعة قرواش
جامعة باجي مختار – عنابة –

تهدف هذه المداخلة إلى بيان التقابل المنهجي والموضوعاتي بين الفكر العربي القديم و الفكر الغربي الحديث، في إطار مسألة المثاقفة. فهل فكرة المثاقفة محور حديث العهد في الثقافة العربية الإسلامية ؟ وهل تختص بمجال دون آخر؟ وإذا تنوعت مظاهرها فمن الطرف المستفيد منها ؟

إشكالية المثاقفة:

إذا تتبعنا أطوار الحضارة العربية الإسلامية وتصفحنا محركاتها وأسباب قيامها وأشكالها، وجدنا الحديث عنها يطول و يتشعب. ذلك أنها كانت أشد الحضارات إقبالا على الحياة والتطور، و أكثر الحضارات إقبالا على الآخر. تؤمن بفكرة العمل و التغيير الإيجابي و النوعي.

ولهذا ربما كانت في بعض مظاهرها نقمة على المستوى السياسي آنذاك ، إلا أنها كانت نعمة ورحمة في المجالات الأخرى .فقد تسببت في حفظ التراث الإنساني؛ بترجمة كتب اليونان والإغريق و الفرس .التي كانت مؤلفات هامة في العصر الحديث، حيث استعاروها باللغة العربية وأعادوا ترجمتها إلى لغاتهم. زيادة على نقل كتب العرب أنفسهم ، فقد قيل إن ابن رشد كان مفتاح النهضة الأوروبية إلى تراث اليونان، وخاصة المعلم أرسطو.(1)

فهذا يعني أن الاعتراف بالآخر من حيث وجوده ليس فكرة حديثة بالمرة ، على الرغم من سلبياتها و إيجابياتها. و في سياق المثاقفة نفسها نسأل: هل ينظر الغرب إلى منتوج الفكر العربي نظرة هذا الأخير إليه ؟

لو أخذنا على سبيل المثال الدرس اللساني الحديث الذي يدرس اللغة دراسة علمية بقصد الوصول إلى حقائق لغوية عامة ، تشمل جميع اللغات سنجد أن علماء الغرب قد حاولوا التأريخ للبحث اللغوي ، بتتبع كيفية تطور هذا المجال إلى غاية العصر الحديث. فبدأوا بالبحث اللغوي عند الهنود باعتباره أول إنتاج لغوي مرورا بالبحث اللغوي اليوناني و اللاتيني ، ليقفزوا مباشرة عند العصر الحديث في القرن التاسع عشر ، أين ظهر النحو المقارن ليصلوا بعدها إلى فكر دو سوسير وما أحدثه من تغيرات في اللسانيات.

قد يبدو لمن يجهل التراث العربي و جهود علمائه أن هذه المراحل منطقية إلا أن الحقيقة تبين عدم تطرقه " إلى الفترة العربية التي تمتد إلى ما بين القرن الرابع الميلادي و القرن الرابع عشر ... حيث ظهرت الحضارة العربية الإسلامية في غاية ازدهارها بما أفرزته من ذخائر و كنوز في مختلف العلوم و منها علوم اللسان "(2)

و بالتالي فهذا التجاهل لم يكن مصادفة بتاتا لأن الشيء الذي أعجزهـــــــم —افتراضا— عن الاطلاع على التراث العربي يجعلهم كذلك عاجزين عن الاطلاع على التراث الهندي ، خاصة و أن أسباب الالتقاء و التواصل كثيرة على رأسها الانتدابات و الاستعمارات ، فأي عذر يمكن أن نبرر به موقف هؤلاء الباحثين و العلماء . فهذه القفزة الاعتباطية أو ما أسماه عبد السلام المسدي بالثغرة العربية في تأريخ اللسانيات لا يفسرها جهل المؤرخين للغة العربية بما أنهم يستعرضون ثمرة حضارات لا يعرفون لغتها. بل تراهم يقفون بالحدس و التخمين على عصور انقرضت لغة الأمم التي عاشت فيها. و إنما يفترض فحسب أنهم وضعوا نظرية في اللغة . و ليس تراث التفكير اللغوي هو وحده المنسي في هذا المقام بل إن العربية ذاتها باعتبارها نمطا لغويا لا تجد حظها عادة عند استعراض اللسانيات لنماذج اللغات في العصر الحديث(3) ، و يمكن أن

نضيف إلى قول عبد السلام المسدي بعض الاستثناءات المحدودة نذكر منها ما كتبته جوليا كريستيفا عن النحو العربي ، إلا أننا لا نعتبره كافيا .

ومع هذه النظرة السلبية للغرب إزاء التراث العربي فإننا نجد الباحثين والعلماء (4) العرب من أمثال عبد الرحمان الحاج صالح و عبد السلام المسدي و عبد القادر المهيري وميشال زكريا، وغيرهم كثيرون يحاولون التعريف بهذا التراث للآخر لتقريبه إليهم ، إضافة إلى ما ينجزونه من تطوير لمفاهيمه و مبادئه من خلال الاستفادة من البحث اللغوي و اللساني الغربي .

تكمن الغاية من هذه المداخلة إبراز ذلك الامتداد الطبيعي للفكر الإنساني و اتصاله ببعضه مهما كانت نتائج هذا الاتصال. لأننا نؤمن أن الحضارات قامت على أنقاض الحضارات السابقة لها. وهذا يدل على وجود تواصل حتمي بين فكر الحضارة السابقة و الحضارة اللاحقة .

حدود المثاقفة في البحث اللغوي :

أثبتت الدراسات العربية اللغوية الحديثة أن لكثير من المفاهيم و المبادئ اللسانية و حتى التربوية جذورا عميقة في التراث العربي مما بين درجة التواصل الفكري بين العرب و الغرب، على الرغم من الفارق الزمني بين الحضارتين. لنأخذ على سبيل المثال ما ورد عند بعض العلماء من مفاهيم و مبادئ في المجالين اللغوي و التعليمي, ولا نقصد من ذلك إسقاطها على البحث اللغوي وإنما بيان درجة التقارب بينهما مما يحيلنا على ذلك الامتداد للفكر الإنساني،وإن اختلفت الحضارات أحيانا وتضاربت أحيانا أخرى.

أ – المجال اللغوي:

سنأخذ نموذجا من الفكر اللغوي العربي القديم من خلال بعض مصطلحاته و مفاهيمه.

لعل الغاية العلمية من جعل البحث اللغوي علميا هو ضبط العلوم و تقنينها بحيث يتسنى للباحث أن يكون عمله موضوعيا بما فيه الكفاية. ولهذا ظهرت انفصالات

عديدة للعلوم على أجناسها المختلفة. فإذا كان البحث اللغوي في عصور سابقة يشمل الدراسة الصوتية و الصرفية و النحوية و الدلالية و الخطابية عامة، فالعصر الحديث يفرض تقسيما لهذه المستويات و يجعل كل علم يتكفل بواحد منها. وهذا في حد ذاته من صميم ما يتميز به المنهج العلمي، و هو تقسيم العمل بين مختصين كي يتسنى لهم الوقوف عند دقائقه والتفرغ له.

ولعل أول مبدأ منهجي سار عليه العلماء العرب الأوائل هو تقسيم العمل اللغوي بين فئتين من العلماء ؛ فئة نزلت أقطار الجزيرة العربية لجمع المادة اللغوية ووصفها كما هي عليه في واقع استعماله ، و المسماة بفئة اللغويين . و فئة ثانية حملت على عاتقها استقراء تلك المادة اللغوية انطلاقا من استطراد الظواهر اللغوية في المادة المجموعة و أطلق على أصحاب هذه الفئة لقب النحاة .

ولقد أومأ السيوطي إلى هذه الثنائية المنهجية في البحث اللغوي العربي بقوله : " اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب و لا يتعداه ، و أما النحوي فشأنه أن يتصرف في ما ينقله عن اللغوي و يقيس عليه "(5)؛ مثل المحدث و الفقيه ، فالمحدث ينقل الحديث و يتحرى الصدق فيه ، و الفقيه يحلله و يستنبط منه الأحكام الشرعية . إذن فكل نحوي لغوي و ليس كل لغوي نحوي .

نستنتج مما سبق ذكره أن البحث اللغوي كان في بدايته وصفيا و الدليل على ذلك الاتصال المباشر بالواقع اللغوي . فقد اهتم سيبويه و شيوخه بالاستعمال الحقيقي للغة و الرصد المتواصل لتصرفات الناطقين في التخاطب اللغوي . فقد قعد النحاة الأوائل للعربية كما يتحدث بها أصحابها ، و معظم ما توصلوا إليه من وصف أو تفسير كان مرده إلى كثرة الاستعمال (6).

وليس هذا فحسب بل اعتمدوا التفسير و التعليل للظواهر اللغوية خاصة مع القرن الثالث و الرابع الهجري أين تعمق العلماء في تحليلهم للغة (7) .

وهذا يحيلنا إلى أن النحو العربي قد وصل في مرحلة مبكرة إلى تفسير الظواهر اللغوية وتعليلها انطلاقا من مجموع النظريات التي وضعت في النحو العربي . وبذلك

بلغ البحث اللغوي درجة متقدمة جدا من الدقة و العلمية . فقد توفر على مناهج البحث الضرورية لأي علم ؛ كالمنهج الوصفي الذي قامت عليه بدايات البحث اللغوي العربي ، و المنهج المقارن الذي استنبطت على إثره قواعد اللغة ؛ حيث قام العلماء بمقارنة لغات القبائل المختلفة للوصول إلى الأقرب منها فصاحة . كما نجد المنهج التاريخي الذي جسده العلماء في بحوث عدة ، سواء في تتبع تطور اللغة أو اللفظة أو المدلول . و لهذا نقول أن توفر المنهج و النظريات المفسرة للظواهر اللغوية هو الذي أوصل البحث العربي القديم إلى هذه الدرجة من العلمية .

في المقابل نلفي اللسانيات الحديثة تنادي بتوظيف المنهج الوصفي خاصة بعد إرساء قواعده على يد دوسوسير. فقد أكد على أن البنوية تقوم أساسا على تحليل عناصر اللغة ، حيث يقوم الباحث بوصف تلك العناصر التي تؤدي إلى تكوين عناصر أكبر منها من حيث التركيب . و ينبغي التأكيد على أن المدارس اللغوية الحديثة التي ظهرت في أوروبا و أمريكا تنسب بشكل أو بآخر .(8)

وأما النظرية التوليدية التحويلية فقد سلطت الضوء على الظواهر اللغوية فلم تعد تكتفي بمجرد الوصف بل تتعداه إلى إعطاء تفسيرات لهذه الظواهر ، انطلاقا مما يحدث في العقل . فكان الشغل الشاغل لهذه النظرية هو تحديد صيغة القواعد اللغوية التي تمثل ذلك النظام الذهني (9) .

إذا بحثنا في الفارق الزمني بين التفكيرين العربي و الغربي فإن الهوة شاسعة جدا. فلو أن الغرب كما يقول عبد السلام المسدي :" انتبهوا إلى نظرية العرب في اللغويات عامة عند نقلهم لعلومهم في فجر النهضة ، لكانت اللسانيات المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم ، بل لعلها كانت تكون قد أدركت ما قد لا تدركه إلا بعد أمد "(10)، ولكان البحث اللغوي العربي – هو كذلك – قد استفاد من الفكر اللغوي الغربي بالضرورة .

ب- المجال التعليمي :

هذا المجال واسع وجد متشعب لأنه يشمل مجموعة من الآليات و الطرق والأساليب و المفاهيم و المبادئ التي تبدو حديثة في صياغتها ، إلا أنها مبثوثة في المصنفات العربية القديمة و منها ما يزال مغمورا حتى بعد الاطلاع عليه لأنه لم يأخذ حظه من الدراسة .

مما يجب أن نشير إليه في هذا المجال هو ذلك الحوار المباشر أو غير المباشر بين الثقافة العربية و الثقافات الأخرى ؛ فكما أثرت البحوث اللغوية و الفلسفية اليونانية في الدرس اللغوي العربي و الفلسفي و الفقهي ، فقد كان للدراسات النحوية والتصنيفات

المعجمية العربية بدورها أثر على الصعيدين العلمي والتعليمي في الدراسات اللغوية اليهودية إلى درجة أنهم جعلوا " النموذج النحوي للغة العربية أساسا لوضع قواعده العبرية ، و أنهم جعلوا النماذج العربية في التأليف المعجمي أساسا يحتذى في وضع المعاجم العبرية . و يعد سعدي الفيومي (ت942هـ) المولود في مصر من أشهر علماء اليهود الذين اعتمدوا على الدراسات العربية "(11). ويحتمل أن يكونوا هم بدورهم قد نقلوا هذا التراث إلى المجتمعات الغربية عن قصد أم عن غير قصد.

ونأخذ في هذا المجال قضية الاكتساب والعلاقة بين الملكة اللغوية والملكة الصناعية:

يبدو أن صورة الاكتساب في التراث العربي واضحة و جلية عند كل من الجاحظ وابن خلدون و الفارابي و القاضي عبد الجبار وغيرهم ذلك أنهم نظروا إلى هذه الظاهرة من زاوية علمية بحتة ؛ أي أن اكتساب اللغة مسألة تتحقق من خلال السماع والاختبار و المحاكاة و المران و الممارسة المباشرة و الاعتياد(12). وعليه يظهر اكتساب اللغة عندهم أمرا طبيعيا. على سبيل المثال نمثل بما قاله ابن خلدون حول هذه الظاهرة وهو الذي عرف بتفريقه المميز بين الملكة الصناعية والملكة الطبيعية ، حيث شبه تعلم اللغات بالصناعة فيقول : " إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودها و قصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها ، و ليس ذلك بالنظر إلى المفردات

وإنما هو بالنظر إلى التراكيب "(13).فلما كانت المفردة لوحدها لا تدل على رسالة ولا تؤدي غرضا فإن العلم بالتركيب و كيفياته وإتقانه هو أساس تعلم اللغات ، طالما أن المتكلم يراعي مقتضى الحال و يفيد سامعه بما يقول .

فالمعرفة بالألفاظ المفردة لوحدها قاصرة عن تعلم اللغة " لأن بنية الملكة اللغوية تنشأ في مستوى التراكيب النحوية لا في مستوى المفردات اللغوية " (14) . وكذلك العلم بقوانين تأليف الكلام العربي لوحده عند ابن خلدون لا يكسب متعلمه إلا ملكة صناعية لا تمكنه من كتابة رسالة سليمة فهي على حد تعبيره " علم بكيفية لا نفس كيفية " (15).

وأما الفارابي فتفسيره لظاهرة اكتساب اللغة يعد خطوة نوعية في البحث اللغوي القديم فقد ركز الانتباه على القدرة الفطرية عند الإنسان فيقول :"الناس مفطورون على صوروخلق في أبدانهم محدودة ، وتكون أبدانهم على كيفية و أمزجة محدودة ، وتكون أنفسهم معدة ومسدة نحو معارف و تصورات وتخيلات بمقادير محدودة في الكمية و الكيفية "وعليه يتم الاكتساب عند الفارابي من خلال قدرة فطرية يدعوها بالملكة الطبيعية ، وهذه الملكة تتحول بوساطة تكرار الأفعال إلى ملكة اعتيادية إما خلقية وإما صناعية (16).

نلاحظ أن تحليل الفارابي لأمر الاكتساب شديد الارتباط بما يقدمه تشومسكي من تفسير لهذه الظاهرة حيث يعتبر أن كل طفل يولد وهو مزود بجهاز يدعوه بجهاز اكتساب اللغة الذي يحاول عن طريقه تكوين مجموعة من الافتراضات عن اللغة، يعمل الطفل على تعديلها في كل مرحلة من مراحل طفولته حتى يتسنى له الحصول على ملكة لغوية تامة .

فهذا تقارب واضح بين فكر الفارابي وابن خلدون وما توصل إليه تشومسكي وخاصة أن كلا من هذين الأخيرين اعتبر اللغة ملكة لسانية يكتسبها الإنسان من خلال ما يسمى بالانغماس اللغوي أي بعبارة ابن خلدون : " بممارسة كلام العرب

وتكرره على السمع و التفطن لخواص تراكيبه " (17)

وعليه هل يمكن أن يكون هذا التقارب في وجهات النظر مصادفة ، و ماذا لو أن الفكر الغربي اتصل بالفكر العربي القديم، فهل ستكون النتائج مرادفة لما هي عليه الآن في الدرسين ؟

خاتمة:

إذا كانت نقاط الالتقاء موجودة بين الفكرين العربي و الغربي فهل يمكن أن نأخذ بطرف واحد منهما دون الطرف الآخر ؟ وهل التمسك بذلك التراث و التقوقع عليه احترام له و تقديس ؟ أم أن الاحترام الحقيقي يكمن في تفعيله مع إنتاج الآخر وتكييفه مع طبيعة العربي و المسلم و حاجته للتجديد و التطور.

لقد وعى العلماء العرب منذ القديم مدى الحاجة إلى تفعيل أعمالهم مع أعمال غيرهم، والدليل على ذلك انفتاحهم على الفكر اليوناني و الفارسي وفق مقاييس تفرضها عليهم طبيعتهم الدينية و الفكرية و الانتماء الجنسي بكل أبعاده .

إذن لا يكفي أن نبرر ذلك التقارب بين الثقافتين فقط ؛ لأن هذا العمل يندرج ضمن عملية الإسقاطات اللامبررة و الذي يكتفي بالمقابلة فحسب ، وعليه لا نرغب أن يكون العمل مجرد استعراض عضلات على الإنتاج الغربي بوساطة ما جاء في التراث العربي لأن الهدف تطوير الفكر بالاستفادة من نتائج الثقافات الأخرى .

الهوامش

(1) انظر : عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ط 2، الدار العربية للكتاب، تونس، 1986، ص 22.

(2) بشير إبرير ، التفكير العربي اللساني التربوي في التراث و إشكالات قراءته، محاضرة مقدمة لطلبة الماجستير سنة 2002/2001 بقسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة باجي مختار.

3) *Initiation à la linguistique ,le langage cet inconnu* , Paris, Seuil, 1981, p. 121/155.

(4) بحث عبد الرحمن الحاج صالح في النظرية الخليلية و أسس مدرسة تحمل هذا الاسم كما ألف عبد السلام المسدي كتبا في التراث العربي على رأسها التفكير اللساني في الحضارة العربية ، و نجد عبد القادر المهيري يؤلف كذلك حول النظريات اللغوية عند ابن جني .

(5) السيوطي ، المزهر في علوم اللغة و أنواعها ، شرح و تعليق محمد جاد المولى بك ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم و علي البجاوي ، ج 1 ، المكتبة العصرية ، بيروت : 1986، ص 59.

(6) تميز البحث اللغوي العربي في بدايته مع العلماء الأوائل باستعمال المنهج الوصفي إلا أننا نجده فيما بعد القرن الثاني الهجري يتحول إلى منهج معياري، و ذلك بسبب إخضاع العلماء المتأخرين النصوص إلى القواعد النحوية التي استنبطها الأوائل.

(7) من ذلك ما نجده بعبارات واضحة و صريحة في استعمال التفسير و التعليل قول ابن جني في العلل الثواني و الثوالث : " فأما في الحقيقة فإنه شرح و تفسير وتتميم للعلة الأولى " (انظر ابن جني ، الخصائص ، ج 1 ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، مصر ، ص390.)

(8)انظر حسام البهنساوي ، أهمية الربط بين التفكير اللغوي العربي و نظريات البحث اللغوية الحديث ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ،1994، ص 25.

(9) المرجع نفسه ، ص 29.

(10)عبد السلام المسدي ، التفكير اللساني في الحضارة العربية ، ص 23.

(11) حسام البهنساوي ، أهمية الربط بين التفكير اللغوي العربي و نظريات البحث اللغوية الحديث ، ص 5.

(12) انظر ميشال زكريا ، قضايا ألسنية تطبيقية ، ط 1 ، دار العلم للملايين ، لبنان، 1993، ص 107.

(13)ابن خلدون ، المقدمة ، ضبط و شرح و تقديم محمد الإسكندراني ، ط 2، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1998، ص 508.

(14) محمد الصغير بناني ، البلاغة و العمران عند ابن خلدون،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر ، 1996، ص 115.

(15)ابن خلدون ، المقدمة ، ص 513.

(16)ميشال زكريا ، قضايا ألسنية تطبيقية ، ص 108/107.

(17)ابن خلدون، المقدمة ، ص 515.